عندما أخطأ الكاريكاتير المصري

زهـدي

أتذكر الآن وصفا سمعته من طبيب صديق عن الشلل الذي يفاجيء الانسان ويعرفه أهل الطب باسم « الشلل الاسترخائي » حيث يبدأ بتوقف شامل لكل أجهزة الجسم — أو يكاد — لفترة زمنية محددة ، ثم تبدأ الدورة في العودة من جديد ، ليجد المصاب نفسه في وضع معين بعد أن يكون الشلل قد تمكن من بعض أعضائه حسب جوانب المقاومة الداخلية للجسم ، ويظل هذا وضعه الى حين تبدأ نتائج العلاج تؤتي ثمارها . وكلما خطر على بالي ما حدث في ٥ يونيه ١٩٦٧ أتذكر هذا الوصف . فالمفاجأة كانت مذهلة وشاملة أصابت العرب وأصدقاءهم كما أصابت الاعداء وأصدقاءهم أيضا ، على حد سواء ، وهي لهذا تستحق أن نقف عندها لنتأمل ، ما دمنا نسعى الى أهداف التقدم .

وأكثر ما يستحق الاهتمام منا ، هو الدور الذي كان من نصيبنا والذي ساهمنا به حتى جاءت المفاجأة بهذا الحجم المذهل ، والذي لم يكن الاعداء يحلمون به . وما هو نصيب الكاريكاتير من هذا الدور ، وهو ما سنتعرض له في هذا المقال واضعين في الاعتبار الاهمية الخاصة لوظيفة الكاريكاتير في التعامل السياسي هذه الايام .

ان الكاريكاتير المصري الحديث ، منذ نشأته بعد ثـورة ١٩١٩ ، كانت له تأثيرات واسعة المدى ومباشرة في مجريات الامور ، جعلتـه يتصدر الفنون الشعبيـة على الاطلاق . ومن الممكن اذا تابعنا الافكار التي أفرزها ونشرها تباعا منذ البداية ، أن نؤلف منها سجلا دقيقا وشاملا لكل ما يشغل أذهان الملايين في مصر والعالم العربي ، بأكبر قدر من الصدق . فهو — لهذا — انعكاس حسي ، ومؤشر يقظ ، للاتجاهات الشعبية في حدود الاطار الوطني الرحيب . وقد يعتبر البعض ان هذا وحده مبرر كاف للأخطاء التي وقع فيها الكاريكاتير ، والتي ساهمت في صياغة المفاجأة المذهلة عنـد النكسة . الا أن التجارب العالمية وتجاربنا نحن أيضا تقول بغير ذلك . فالمفروض أن الكاريكاتير الاصيل يقوم على النقـد بغرض التقويم والتصحيح ، تعبيرا عـن روح الاخلاص وشجاعة الفروسية الشعبية — وليس هذا فحسب — ولكن بنظرة واعية مدركة . أما اذا تحول الى المجاملة والانسياق الاعمى بغير الاقتناع الذاتي الكامل ، يصبح مجرد بوق من أدوات الدعاية والاعلان بعد أن تعطلت فيه روح المبادرة الواعية الشجاعة . ولعل هذا ما حدث للكاريكاتير المصري بالفعل ، وهو ما يستحق المؤاخذة عليه .

فقد زار القاهرة صحفي أوروبي من أصدقاء العرب — وذلك بعد النكسة — جاء ليبحث عن مادة تصلح للنشر في الخارج دفاعا عن العرب ، ولمواجهة الدعاية المعادية التي التهمت عقول الناس هناك ، وأوهمتهم بأن العرب « متوحشون » وانهم يبيتون النية لاغتيال دولة اسرائيل « الوديعة » . وكان هذا الصحفي الصديق ممن افاقوا على هذه الخديعة الاعلامية بعد النكسة ، بعد أن تبين له أن هذه « الوديعة »